التحول الدلالي في الخطاب الصوفي/موقف البحر النفري أنموذج

أ. حاج بن سراي أستاذ

جامعة تبسة

ملخص:

من أبرز سمات الخطاب الصوفي أنّه يتّخذ من اللغة المتواضع عليها مادة بنائه؛ غير أنّه يعمد إلى تحويل النظام اللغوي إلى علامات سميوطيقية، وهذا التحويل الدلالي فيه ارتقاء باللغة من مجال المواضعة إلى مجال أرحب هو المجال السميوطيقي؛ مما يسهم في انفتاح النص وامتداد أفق الدلالة. ويطلق على عملية التحويل تلك اسم: (السَّمْطَقَة)، وفي "مواقف النفري" متّسع لبيان هذه العملية وكيفية اشتغالها؛ إذ تستهدف هذه الدراسة تقليب النظر في موقف من مواقفه وهو "موقف البحر" من أجل دراية أوسع وفهم أنفع لبنية الخطاب الصوفي ودلالاته العميقة.

تمهيد:

تمتلك اللغة قدرة فذّة على نقل التجارب والخبرات وتبادل الأفكار باعتبارها وسيلة اتّصال بين مرسل ومتلقّ، بيد أنّ وسيلة الاتصال هذه قد تكتنفها عقبات تعوق نجاح عملية التواصل، ويغدو حصول التفاهم بين طرفي الخطاب مشروطا بإزالة تلك العقبات، ولذلك كان مما استحسنه الجاحظ قول بعضهم: «يكفي من حظ البلاغة أن لا يؤتى السامع من سوء إفهام الناطق، ولا يُؤتى الناطق من سوء فهم السامع»[1].

---

[1] البيان والتبيين: أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط:7، (1418هـ-1998م)، 87/1.

وقد حاول المتصوّفة في إنتاج نصوصهم وتواصلهم بها مع جمهور المتلقّين أن يهيّئوا لها أسباب القبول، فراهنوا على كفاءة اللغة واتّخذوا من طاقاتها وإمكاناتها التعبيرية مجالا لرصد تجاربهم الروحية وشدّها بوثاق الكلام، مدركين في الآن نفسه وجوب مراعاة خصوصية تلك التجارب في اتّساعها وانفتاحها، لذلك عمدوا إلى أنماط من الخطاب تتّسع بها الدلالة وتنفتح على الآفاق الرحيبة للتفكير والممارسة الصوفية.

وعندما تعامل الصوفية باللغة كوسيلة للتعبير حاولوا تطويعها لتستوعب القضايا التي ترشح عن تفاعلهم مع واقعهم الثقافي، فلقد «عبّر المتصوفة باللغة، والتي يعاد بفضلها إنتاج أو تمثيل أو نمذجة الواقع والحدث أيا كان مصدره، وتوسعوا في أشكال التعبير التي سمحت بها اللغة، وشكّلوا نسقا خطابيا مختلف المكونات والظواهر النصية، من شعر وقصص وأدعية ومناجيات وحكم وأخبار تنتظمها مجموعة من القوانين التي تحكم العلاقات والتفاعلات فيما بينها، قصد بلوغ هدف معيّن هو التعبير عن تجربتهم في الاتصال بالله وهي تجربة معرفية عاطفية كما أنها تجربة في الكتابة والإبداع» [1]. غير أنّ الملاحظ أنّ الصوفية كانوا على وعي بمخاطر التصادم مع المتلقّين أولي القصور المعرفي بمعطيات التجربة المعبَّر عنها، مما جعلهم يأخذون حذرهم بالتركيز على تهيئة خطابهم لأن يُتَقَبَّل منهم. ولا ريب أنّ النّفري كان خبيرا بحجم المخاطرة الناجمة عن الكتابة بمداد غير مألوف، وهو الذي قال في موقف البحر: «في المخاطرة جزء من النجاة» [2].

---

[1]) الحركية التواصلية في الخطاب الصوفي، آمنة بلعلى، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2001م، ص:18

[2]) المواقف والمخاطبات : محمد بن عبد الجبار بن حسن النّفري، مكتبة المتنبي، القاهرة، د– ت، د– ط. ص:7.

ب- النفري وتهيئة الخطاب للقبول:

النفري من أكابر العارفين في تاريخ التصوف الإسلامي – على الرغم من الغموض الذي اكتنف شخصيته والإهمال الذي تكبّدته سيرته–، إذ لم يَرد في ترجمته من المعلومات غير النّزر اليسير الذي لا يقوم شاهدا لرصد سيرة وحياة رجل من كبار الصوفية وممن بلغ بآثاره شأوا بعيدا في الكتابة والخطاب الصوفي، ومما ورد في ترجمته أنّه «أبو عبد الله محمد بن عبد الله النفّري، من نفّر بين الكوفة والبصرة...اشتهر بكتابيه:"المواقف والمخاطبات" وله فيهما الكلام العالي في الطريقة، وكان من العلماء البارعين في كل العلوم، ومات سنة:354هـ (965م). وينسب كتاباه لحفيده محمد بن عبد الجبار النفّري، لأنّه قام بترتيب الكتابين، وألّف بين فصولهما أثناء حياته وبعد وفاته»[1]. وبهذا لم يبق لنا من هذا الصوفي غير ما خلّفه لنا من آثار ثمينة تمثّلت في نصوص المواقف والمخاطبات التي تعدّ علامة قيّمة وصادقة على ثراء الخطاب الصوفي.

ولعلّ أهمّ ما يميّز كتابات النفّري هو كسرها لرتابة اللغة العادية، وانعتاقها من أسر المدلولات المتعارف عليها، فلقد شحن النفري خطاباته بعبارات تحمل من الخصوبة البلاغية ما يفرض على المتلقي التعامل معها تعاملا متميّزا، فهي لما تحويه من جمال في المبنى وغنى في المعنى لا تني تغري القارئ بجاذبيتها وسحرها البياني، غير أنّ تلك الخصوبة اللغوية وذلك التكثيف البلاغي لم يفلحا تماما في عصمة الخطاب الصوفي من سوء التفهّم، ودرء تهمة الغموض عنه ووصمه بجنحة الخروج على سنن التخاطب المألوفة؛ مما عمّق الهوّة بين مرسل الخطاب وبعض متلقيه، ولذلك «ظلّت المواقف والمخاطبات دليلا على ذلك الهاجس التواصلي الذي يلخص جوهر الفعل التواصلي، حيث جرّب له المتصوفة كلّ أشكال التعبير من أجل تحقيقه خطابيا، واعتقدوا أنهم حققوه فعليا...وهي أشكال حاول من خلالها المتصوفة أن يقيموا من

[1] الموسوعة الصوفية: عبد المنعم الحفني، مكتبة مدبولي،ط:5، 2006م، القاهرة، ص:704.

ذواتهم وسائط بين ذواتهم والله من جهة، وذواتهم والعالم من جهة أخرى من أجل فهم العلائق بينها» [1]. ويبدو أنّ النفري في سعيه لتحقيق القبول لخطابه لم يترك من وسائل الإقناع والإغراء وسيلة إلا اتّخذها سبيلا لذلك، فتأمُّل صياغة الخطاب في "المواقف" تشي بتعمّد النفري اتّخاذه لوضع المتلقي عن مرسل أعلى هو الله-عز وجل- صونا لمضامين الخطاب من الرفض، ففي بداية كل وقفة يقول: "أوقفني... وقال لي:..." وهكذا يحوّل النفري -مُنتِج الخطاب- نفسَه إلى متلق يتّخذ دور الوسيط بين الله والمتلقي لخطابه، ومنحُ مرجعية الخطاب ومصدريته لله تعالى يحمل على تصديقه ويسهم في التفاعل الإيجابي معه، «ومعنى ذلك أن النفري منذ البداية يعطي تبريرات على صدق الخطاب الذي سوف يمرره للمتلقي، وذلك بإسناده إلى الله» [2].

ثمة -إذن- وعي من النفري والمتصوفة بإمكان حصول التعارض والتصادم مع المتلقين للخطاب بسبب عدم مشاركة التجربة وعدم العلم بمعطياتها، إذ تفرض خصوصيةُ التجربة خصوصيةَ الخطاب المعبِّر عنها؛ لاسيما على مستوى الدلالات، فمراعاة منهم لخصوصية تلك التجربة التي يعبرون عنها بالكتابة واللغة ينتخب الصوفية نمطا من التعبير خاصا، يشتركون فيه مع غيرهم من جهة دلالة الألفاظ في أصل وضعها فقط، ليباين أنماط الخطاب الأخرى بما يُنتج من دلالات جديدة، أو بما يكتنفه من تحول دلالي. وهذا ما يدخل ضمن ما يُعرف بالسمطقة.

2- مفهوم السَّمطقة:

يعرّف نصر حامد أبو زيد السمطقة بقوله: «وتحويل النظام اللغوي إلى علامات سميوطيقية داخل نظام آخر عملية يطلق عليها اسم :السمطقة»[3]. حيث

---

[1] الحركية التواصلية في الخطاب الصوفي، ص:127

[2] المرجع نفسه، ص: 131.

[3] النص والسلطة والحقيقة: نصر حامد أبو زيد، المركز الثقافي العربي، ط:5، الدار البيضاء، المغرب، 2006م، ص:217.

يتم نقل اللّفظ من دلالته الأصلية المتواضع عليها ليتّخذ دلالة جديدة قد يتسبب بينها وبين الدلالة الأولى. فاللفظ باعتباره علامة لغوية لها وجهان (دالّ ومدلول) تحكمهما علاقة اعتباطية؛ حيث يشير الدال إلى مدلول معين وفق ما تمّ التواضع عليه، غير أنّه من الممكن أن تتحوّل المدلولات هي الأخرى إلى دوالّ تشير إلى مدلولات ثانية، يقول نصر حامد: «وثمة خاصية أخرى للعلامات اللغوية نابعة من خاصيتها السيمانطيقية، وهي قدرتها على التحول على مستوى المدلول لكي يصبح بدوره علامة من نوع آخر تشير إلى مدلول آخر فيما يعرف بالتحوّل الدلالي في أنماط المجاز المختلفة »[1]. وهذا يشبه ما ذكره عبد القاهر الجرجاني عند حديثه عن الكناية والاستعارة والتمثيل وأنّها لا تُفيد الأغراض من مجرّد ألفاظها، وإنّما تفيد معاني أخرى إضافية على سبيل الاستدلال، حيث يرى أنّ « الكلام على ضربين: ضرب أنت تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده...وضربٌ آخر أنت لا تصل إليه بدلالة اللفظ وحده، ولكن يدلّك اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة، ثمّ تجد لذلك دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض»[2]، ويطلق عبد القاهر على هذه المعاني الإضافية :"معنى المعنى". يقول في الدلائل: «وإذ قد عرفت هذه الجملة، فههنا عبارة مختصرة وهي أن تقول: "المعنى" و"معنى المعنى"، تعني بالمعنى المفهوم من ظاهر اللفظ-والذي تصل إليه بغير واسطة-، و"بمعنى المعنى" أن تعقل من اللفظ معنى، ثمّ يفضي بك ذلك المعنى إلى معنى آخر»[3].

---

[1] إشكاليات القراءة وآليات التأويل، نصر حامد أبو زيد،المركز الثقافي العربي،ط:7، 2005، الدار البيضاء. المغرب،ص:87

[2] دلائل الإعجاز: أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني، تع:محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة. ط:3، 1413هـ- 1992م، ص: 262.

[3] دلائل الإعجاز ص: 263، وينظر في تأويل ذلك ومقارنته : النص والسلطة والحقيقة: ص: 217-218.

والارتقاء بها إلى مجال أرحب هو المجال السميوطيقي، إذ تجعل المتلقّي لا يقف عند العلامة بل ينتقل منها إلى ما تدلّ عليه[1]. ويرى نصر حامد أنّ «عملية السمطقة تلك تنقل اللغة من مجال المواضعة إلى مجال الاستدلال العقلي، أي تحولها إلى نسق من العلامات غير لغوي، إذ الأساس في العلامات اللغوية قيامها على العرف والمواضعة، وليس من الضروري أن يكون الأمر كذلك في العلامات السميوطيقية»[2]، والتحرر من قيود العرف والتواضع يفجّر الطاقة الدلالية للغة ويمنحها القدرة -لا على التعبير عن حاجات الإنسان فحسب- بل فهم العالم والتعامل معه، من خلال انفتاحها على آفاق الاستدلال العقلي، على اعتبار أنّ «اللغة ليست مجرّد أداة للتعبير عن المعرفة، بل هي في الأساس أداة التعرّف الوحيدة على العالم والذات، وهي من ثمّ أهمّ أدوات الإنسان في امتلاك هذا العالم والتعامل معه»[3].

3- خدعة السَّمطقة وحيلة التأويل:

عندما يلتحف الخطاب الصوفي رداءَ السمطقة -بما تقترفه من تحوّلات دلالية- فإنّه يُجبر متلقّيه على الاستنجاد بآلية التأويل لفكّ شفراته، ذلك أنّ «الخطاب الصوفي -وبفعل قوانينه واستراتيجيات التواصل المعقد فيه- يمتلك من سمات الإطلاق واللاتحديد ما يجعله بمثابة الآلية الكاتمة التي شكّلَ وضعُها في التلقي آليات انفتاحِه، وهو وضع تأويلي»[4]. وداعية التأويل ههنا راجعة إلى انبهام المرجع بعد انفكاك اللغة عن مجالها الوضعي الأصلي واقتحامها لمجال آخر جديد، ما أدّى إلى غموض وتناقض اعترى الخطاب الصوفي وأثّر في العملية التواصلية، فقد نتج عن

---

[1] ينظر : النص والسلطة والحقيقة: ،ص:218.

[2] المرجع نفسه، ص:117- 218.

[3] المرجع نفسه، ص:189.

[4] الحركية التواصلية في الخطاب الصوفي: ص:17

ترشح الغموض لدى المتلقّي عدم إدراك ما تميّز به الأسلوب الصوفي من خصائص؛ مما تسبب في إقصاء الخطاب الصوفي، والتعامل معه تعاملا لم تراع فيه سمة إيثار الصوفية للتعبير غير المباشر – وهي التي تُدخله إلى دائرة الأدبية والفن من أوسع أبوابهما–، والنتيجة أن تمّ «نبذه وإقصاؤه من دائرة الكتابة الأدبية لأنه خاطب الناس بغير ما ألفوه، فتعطّل تمام العملية التواصلية لانبهام المرجع، وخضوع الخطاب الصوفي لقراءة الجامدة» [1]. وطالما اصطدم الخطاب الصوفي بجدار التلقّي بسبب هذا الغموض أو التناقض الظاهري، وعدم إدراك المتلقّي للدلالات العميقة التي تحبل بها اللغة الصوفية؛ مما حمل بعض الصوفيين على الاعتصام بآلية التأويل كحيلة لحلّ مشكلات التواصل، ولتحقيق قدر من التفاهم مع المتلقين للخطاب ومدّ جسور التوافق معهم. وهذا ما حدث لمواقف النّفري التي شرحها وأوّلها عفيف الدين التلمساني. وفي اللجوء إلى حيلة التأويل إيماء إلى أنّ ثمة معنى آخر قابعا خلف الكلام لم يتمّ الكشف عنه غيرة عليه![2]، فلاذ المتكلّم بخدعة حاكها على مستوى الخطاب لم يتفطّن لها من تعامل مع الخطاب تعاملا سطحيا ساذجا، وهي تحتاج إلى قارئ حصيف يكشف ما خفي من الدلالة ويبدع من تلقّيه للنص نصا جديدا. فالمتمطقة بهذا المعنى خدعة لغوية تمتطي ظهر المجاز يُضلّ بها فريق من المتلقين ويُهدى فريق إلى إدراك ما قصرت عنه مدارك من لم يعتصم بالتأويل.

---

[1] النص الشعري بوصفه أفقا تأويليا: لطفي فكري محمد الجودي، مؤسسة المختار، ط:1، 1432هـ–2010م، القاهرة، ص:66

[2] مما يتداوله المتصوفة من مبررات الترميز والإغراب: الغيرة على المعاني الصوفية من تداولها بين من ليس من أهلها، فقد نقل الكلاباذي حوارا جرى بين بعض علماء الكلام وأحد الصوفية جاء فيه: «قال بعض المتكلّمين لأبي العباس بن عطاء: ما بالكم أيها المتصوفة قد اشتقتم ألفاظا أغربتم بها على السامعين، وخرجتم عن اللسان المعتاد، هل هذا إلا طلب للتمويه أو ستر لعوار المذهب؟ فقال أبو العباس: ما فعلنا ذلك إلا لغيرتنا عليه لعزّته علينا، كيلا يشربها غير طائفتنا». التعرف لمذهب أهل التصوف: أبو بكر محمد بن إسحاق الكلاباذي، تح: عبد الحليم محمود وطه سرور عبد الباقي، ط: 1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1424هـ–2004م، ص: 88–89

ب- موقف البحر: غربة اللغة ولعبة المجاز:

في (موقف البحر) يبدأ التحوّل الدلالي في نظام اللغة من بداية الوقفة، وتصبح اللغة غريبة عن وطنها الأم، فلا البحر بحر ولا المراكب فيه كما عهدها الركاب، وحتى الموج والساحل ينكرهما القارئ المسافر عبر الخطاب، لما يحدث في عمق النص من ثورة دلالية تتخلّى فيها الألفاظ عن إفادة المعاني المعهودة منها، لتنوء بحمل دلالات عميقة لا سبيل إلى إدراكها من غير ركوب مطية التأويل، حيث «يقف النفري في هذا النص كما يقف في بقية نصوصه، عند كلمات وعبارات يعرفها المتلقي، غير أنّه يوقف معانيها المتعارف عليها، ويقيم فيها معاني أخر تخرجها من التحديد إلى نوع من الإبهام(...)وتصبح الدلالة تخيلية غير مقترنة بمرجع معروف، وإن كان النفري ومن خلال الطريقة الاستدلالية التي يقيمها بين الجمل وينشئ من خلالها المعنى، يحيل إلى مرجع في النص ينشئ القارئ به المعنى، وبحسب طريقة استيعابه ومن خلال معبره التصوري»[1]. فعندما يقول النفّري في بداية الوقفة: «أوقفني في البحر فرأيت المراكب تغرق والألواح تسلم، ثمّ غرقت الألواح، وقال لي لا يسلم من ركب» [2] يتجلّى من كلماته وعبارته أنّ هذه الدوال لا تفيد المدلولات المتعارف عليها، واستخدامه لعبارة (أوقفني) يشهد على ذلك؛ فالإيقاف يومئ إلى انسلاخ لفظة البحر بعدها عن معناها الحقيقي لتلبس ثوب الرمز وتركب مطية المجاز، ثمّ تتقمّص لفظة الإيقاف الدور نفسه وتصبح لفظة مجازية، وتقتحم الألفاظ التالية في العبارة كلها مجالا آخر وتتّخذ معان ودلالات لم تكن لها في أصل الوضع، وبهذه العملية (عملية السمطقة) يشكّل النص لغته الخاصة التي تميّزه عن غيره بحكم تميّز مجاله الدلالي، غير أنّها لغة قابلة للتأويل؛ أي ثمّة قدر من الصلات بينها وبين اللغة المتعارف عليها. وتأويل العفيف التلمساني لعبارات النفري دليل على ذلك، إذ فيه

---

[1] الحركية التواصلية، ص: 147.

[2] المواقف والمخاطبات، ص: 7.

إيماء لخصوصية مجالها الجديد والذي يؤكّده بقوله عن موقف البحر: «هذا الموقف جميعه هو لأهل البداية في السلوك، وما يتعلق بتصحيح النية فيه، وشرح ما يعرض للسالكين من ثمرات تصحيح النية أو ضد ذلك»[1].كما يؤكّده تأويله للفظة أوقفني بقوله: «قوله: أوقفني. معناه: أيقظ قابليتي لتلقي التجلي»[2]. وفي تأويل العفيف التلمساني -أيضا- تأكيد على ما يربط لغة النفري هنا بالأصل المتواضع عليه كتأويله للألفاظ الأخرى في قوله: «والبحر على هذا هو ما يقطعه العبد ويسافر فيه في أثناء سلوكه»[3]، وقوله: «والمراكب هي ما يتّخذ طلبا للنجاة، وذلك في عادة السلوك هو العبادة إنما تصح على ما يقتضيه العلم، فرؤيته إياها تغرق معناه تُهلك من يعوّل عليها، فإنّ غرق المراكب هو هلاك الراكب»[4]، وقوله: «ومعنى قوله: والألواح تسلم، أي راكب الألواح أقرب للسلامة، وذلك لأنّ راكب الألواح في هذا البحر لم يعتمد على الأسباب اعتمادا كليا، لأنّ الألواح أسباب ضعيفة، فكأنّ راكبها اعتمد على المسبب الحق تعالى لا عليها»[5]، وجدير بالذكر هنا أنّ تأويلات التلمساني محاولة منه لإضفاء الشرعية والصحة على مقولات النفري من خلال إعادة العبارات النفرية إلى مجالها المتواضع عليه بالتأويل والمآخاة بين المجاز والحقيقة؛ إيماء بصحة ما يقوله النفري وتوضيحا لما يشير إليه، كما يبرر لجوء النفري إلى لغة الرمز والإشارة وممارسته للعبة المجاز باجتناب التصادم مع المتلقي غير الجاهز لإدراك الحقائق الصوفية، حيث يقول في شرحه لموقف البحر: «والذي حسّن هنا تخصيص الطريق باسم البحر والعبادة بالمراكب في التمثيل هو أنّه لو صرح بهذا المعنى ولم يجعل الحديث فيه بالإشارة أنكره علماء الرسوم دفعة واحدة قبل الوصول إلى فهم معناه لما

---

[1] شرح مواقف النفري، عفيف الدين التلمساني، تح: جمال المرزوقي، د.ط، ص: 99 .

[2] نفسه، ص:57.

[3] نفسه، ص: 99 .

[4] نفسه، ص: 100

[5] نفسه، ص: 100

يبادر إلى أفهامهم من أن فيه مخالفة للسنة والشرع، وليس كذلك بل المراد أن يكون مع القيام بالعبادات المشروعة خاليا من الاعتداد بها»[1].

وعلى هذا الأساس من التبرير يستقيم أمر التأويل بقراءة خطاب النفري قراءة عميقة تنفذ إلى مقاصده، وتأخذ في الاعتبار خصوصية لحظة الإبداع التي رشحت منها هذه المواقف، لأنها «عند النفري لحظات وجدانية رمزية، عاشها بعد حصول الاتصال، وتعتبر دليلا وشاهدا على معرفة الواصل لله» [2].ولنَقْل هذه المعرفة الخاصة والتعبير عن تلك اللحظات الوجدانية الخاصة يليق بالكاتب أن ينتقي كلماته ليتمّ له التعبير بأسلوب خاص؛ «يقوم على إدخال هذه الكلمات في علاقات الرمزية، يحلّ فيها الإيحاء محل الإفضاء المباشر. وذلك الأمر هو الذي جعل النفري في النهاية كاتبا للخاصة؛ بحيث لا يستطيع أن يتذوّقه أو يتأثّر به إلا نفر قليل من ذوي الثقافة العالية» [3].

ومن هذا المنطلق يغدو من الصعب تفهّم الغموض الظاهر على سطح الخطاب لمن لم يمتلك آليات التأويل المناسبة له، بل قد لا يتأتّى ذلك إلا لمن خبِر مؤدّى المعنى وأدرك دلالاته القاصية، يقول النفري : «وقال لي خاطر من ألقى نفسه ولم يركب، وقال لي هلك من ركب وما خاطر، وقال لي في المخاطرة جزء من النجاة، وجاء الموج فرفع ما تحته وساح على الساحل » [4]. إنّ محاولة فهم النص هنا لا تمرّ فقط بإدراك المتلقّي لتوافق وانسجام عناصر التمثيل والاستعارة، بل بربط ذلك بانتقال الدلالة إلى مجال آخر لا بد أن يستوعبه المتلقي ويفهم نظامه، لأنّ التحوّل الحاصل في بنية النص تغدو بموجبه كلّ الكلمات (دالا) في بنية النظام الثقافي

---

[1] نفسه، ص: 101

[2] الحركية التواصلية: ص: 129.

[3] النصوص الكاملة للنفري: دراسة وتقديم جمال المرزوقي، الهيئة المصرية العامة للكتاب. 2005.ص:44.

[4] المواقف والمخاطبات. ص:7.

... حيث لا يتم إنتاج الدلالة من الألفاظ/العلامات، ولا من ...ب/النحو وحدهما، بل تنتج الدلالة من خلال تحويل "الدلالة الكلية" الناتجة عن ... دلالات الألفاظ وعلاقات التركيب إلى"علامة كلية" تحيل إلى دلالة ...»[1] ويمكن الاستدلال على وجود هذه الإحالة عن طريق تلمّس عمليات ...ثيف والترميز الحاصل على المستوى اللغوي في بنية الخطاب: «لا يتجلى ذلك ... من حيث تنوع الدوال بتنوع المواقف والمخاطبات بل أيضا حين تقدم هذه ...ل بوصفها أمكنة حقيقية، ثمّ تتحول بالتدريج إلى حالات من التجريد، وغالبا ...كون الحالة الأولى الدالة على المكان هي الجملة المولّدة التي ينطلق منها النص ... بقية الجمل مدفوعة كل واحدة فيها بالتي سبقتها، حتى تكوّن مشهدا بصريا ولا يفصح»[2]، وقول النفّري: "أوقفني في البحر" هي الجملة الأولى المركزية التي ... منها باقي الجمل ودلالاتها، وتدور في فلكها كلّ المعاني التي تتناسل من ...ت النص، وهي عبارات تمّ تخصيبها عن طريق عملية التحويل الدلالي(السمطقة) ...ق عبر آليات الترميز والتكثيف والحشد الفني، وهي آليات لا تعمل في حالة ... المفردات والتعامل معها مبتورة عن سياقها وإنما تشتغل عند التركيب والنظم، ...ّ «هذا التحول الدلالي لا يحدث في العلامة اللغوية في حال إفرادها، ولكنه ...ق من خلال التركيب الذي يكسب العلامة دلالة لا تكون لها في حالة إفرادها. التحول الدلالي أيضا هو الذي ينقل النص اللغوي من وظيفة الإنباء ...ماعية ويجعله يحقق وظائف أخرى أدبية»[3]، حيث تتمّ على مستوى التركيب ... تخصيب فني بلاغي باستخدام ضروب المجاز المختلفة، وتبلغ الخصوبة الفنية ... في عدّة مواضع من موقف البحر في عملية ترشيح للاستعارة والمجاز ...فري: «وقال لي ظاهر البحر ضوء لا يبلغ، وقعره ظلمة لا تمكن، وبينهما

... والسمطقة والحقيقة، ص: 217.

...ة التداولية ص: 149.

... ص: 87.

حيتان لا تستأمن. وقال لي لا تركب البحر فأحجبك بالآلة، ولا تلق نفسك فيه فأحجبك به. وقال لي في البحر حدود فأيّها يقلّك؟ وقال لي إذا وهبت نفسك للبحر فغرقت فيه كنت كدابة من دوابه» [1]. فالمجاز مبني على علاقة المشابهة بين البحر الحقيقي والطريق الذي يقطعه الصوفي لاشتمالهما على صفة حمل المسافر وعلى ما فيهما من وعورة ومخاطر، فهو مجاز لغوي(استعارة) تمّ ترشيحها بذكر القرائن الملائمة للمستعار منه وتوابعه(المراكب-الألواح- الحيتان، غرقت- دابة من دواب البحر...)، واشتمل بذلك على تحقيق المبالغة وصار مبنيا على تناسي التشبيه، وهو سبب اعتبار الاستعارة المرشحة أبلغ من غيرها. [2]

ينمّ الحال عن وعي عميق بقدرة اللغة المجازية دون غيرها على رصد لحظة الشعور بالحقائق الغيبية وإدراكها ثمّ نقلها إلى الآخر المتلقي، لأنّ المسافة بين الدال والمدلول تتّسع كلما أوغل المرء في عالم الغيب وحاول التعبير عن علاقة الإنسان بخالقه، «وإذا أرادت اللغة التعبير عن فكرة (الله) (الغيب) فإنّ المسافة تتسع وتتسع. والمسافة لا يمكن عبورها، ولكن يمكن تقريبها وتحويلها إلى مجال للتفاعل عن طريق المجاز الذي يوسع من نطاق اللغة الإنسانية ويجعلها أكثر مقدرة على التعبير عن الإنساني المركب واللامحدود، يتم هذا عادة عن طريق ربط المجهول بالمعلوم، والإنساني بالطبيعي، والمعنوي بالمادي، واللامحدود بالمحدود. وهو ربط لا ينجم عنه مزج عضوي بينهما، وإنما تحويل الواحد منهما إلى طريقة لاستكشاف الآخر إذ تظل المسافة بينهما قائمة رغم عملية الربط بينهما»[3]. وبهذا التحويل تتخلّص اللغة من وصمة القصور والمحدودية والعجز عن تفسير المجرد أو التعبير عن الغيبي، ذلك أنّ هذا التحويل مسّ نوعية اللغة وطبيعتها التي كانت في أصلها عبارات ضيقة تنوء بحمل الأفكار والرؤى

---

[1] المواقف والمخاطبات، ص:7.

[2] ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة: للخطيب القزويني: تح: غريد الشيخ محمد-إيمان الشيخ محمد، دار الكتاب العربي، بيروت، ط:1، 1425هـ- 2004م، ص:211 وما بعدها.

[3] اللغة والمجاز: عبد الوهاب المسيري، دار الشروق، ط:1422،2هـ-2006م، القاهرة، ص:14.

كما وصفها النفري في موقف ما تصنع بالمسألة حين قال: «وقال لي: كلما اتّسعت الرؤية ضاقت العبارة، وقال: العبارة ستر فكيف ما ندبت إليه»[1]. والمثير للاهتمام هنا أنّ النفري قال بضيق العبارة لا بضيق اللغة؛ لأنّ ثمّة لغة أخرى إشارية تتّسع باتساع الرؤية وهي اللغة المجازية غير المباشرة التي تتجلى فيها فاعلية الخطاب والتعبير عن التجربة الروحية ممثلة في الوقفة؛ حيث «يتخلص العارف الواقف من التطابق مع الخطاب السائد آنذاك ليصطنع أسلوبا تجلّت فيه فاعلية الرؤيا والأداة معا، وأسهمت في انفتاح النص، حيث تنتهي الوقفة/ المخاطبة، ولا ينتهي النص مما يسمح بقراءات لا حصر لها، دون أدنى التزام بسنن التلقي التي حددت لقراءة النصوص آنذاك، ولم يتحمل النفري سلطتها . وواضح من خلال بعض الإشارات إلى القوة الكامنة في هذه النصوص أنّها موجّهة إلى متلق خاص يستخلص سنن القراءة ومعايير التذوق من النص ذاته، ولا شك أنه يتمثل في الخاصة من أهل التصوف في ذلك الوقت»[2]

يختتم النفري موقف البحر بما يومئ إلى المجال الجديد الذي نقل إليه اللغة –بعمية السمطقة– من أصل المواضعة لتكون وسيلة استدلال؛ حيث يقول: «وقال لي غششتك إن دللتك على سواي. وقال لي إن هلكت في سواي كنت لما هلكت فيه. وقال لي الدنيا لمن صرفته عنها ومن صرفتها عنه، والآخرة لمن أقبلت بها إليه وأقبلت به عليّ»[3]. فقد اتّضح من ختام كلامه أنّ الدوال التي شكّل بها خطابه في موقف البحر تتحرك في فضاء أنموذج لغوي قائم على ركيزة معينة (الطريق إلى الله) تجسّدت من خلال صور مجازية، وفي هذا المعنى يقول عبد الوهاب المسيري: «ويوجد داخل كلّ نص مكتوب أو شفهي، نموذج كامن يستند إلى ركيزة أساسية، عادة ما تترجم نفسها إلى صورة مجازية، استخدمها صاحبها بوعي أو بغير وعي للتعبير عن هذا النموذج. ويتجلى النموذج الإدراكي المجرد من خلال الصور المجازية بشكل

---

[1] المواقف والمخاطبات: ص51.

[2] الحركية التواصلية: ص:152.

[3] المواقف والمخاطبات. ص:7.

متعين مباشر، وبالتالي تتضح مرجعيته النهائية، وقد لا يمكن إدراك طبيعة النموذج وبنيته دونها»[1].

لقد مارس النفري لعبة الرمز والمجاز بمهارة عالية واقتدار بالغ على التحكم في نسيج اللغة، وهو ما ينمّ على وعيه بضرورة تأسيس البديل الخطابي القادر على مجاراة عمق التفكير والتجربة الصوفية، هذا البديل المتمثل في سمطقة الخطاب المستحضر من الطاقة التعبيرية لا شك أنّه يؤتي أكله مع متلقّ نموذجي يتفهّم ما وراء اللغة ويدرك مدى ثراء الوضع الذي تخلقه الوقفة. «إنّ هذا الوضع الثري لم يكن ليعتمد لولا تصور النفري متلقيا يشاركه الخطاب ويتواصل معه كما يتفاعل مع الرسالة ضمن المجال التداولي الواسع الذي جسّدته ممارسته الخطابية»[2].

في الختام لابد من التأكيد على أنّ تجربة النفري الإبداعية قد جسّدت عطش اللغة في سعيها اللاهث إلى منهل الحقيقة، « تلك الحقيقة التي لا تدرك إلا بالبصيرة، ولا يتم الوصول إليها إلا بحركة عبور متعبة؛ هي محاولة استبطان البنية الرمزية للعالم، والنفاذ إلى حقائق الأشياء واختراقها باعتبارها حجبا نحو حقائق أخرى»[3]، ولذلك فقد صنع النفّري من كلماته فلك النجاة الذي يعصم السالكين من الغرق في موقف البحر.

---

[1] اللغة والمجاز،ص:18.

[2] لحركية التواصلية، ص:141.

[3] نفسه، ص:157.